التأويل :قراءة نقدية جمالية للنص الأدبي.

أ.والي مولاة
أستاذة بجامعة جيلالي ليابس
كلية الآداب و العلوم الإنسانية،
قسم اللغة العربية و آدابها.

استغرق تحرير القراءة من مفاهيم أطر التلقي السابقة جهودا نظرية و تطبيقية، حاولت أن تولي عنايتها لشخص المتلقي الذي دأبت المناهج السابقة على استبعاده طرفا مشاركا في العملية الإبداعية.

إذ بقي النص الأدبي إما أسيرا لمنطلقات سياقية، مشرعة على الذاتية و على الخارج المطلق،و إما حبيس الأطروحات البنيوية التي غالت في انغلاقها،و تقوقعها على داخل النص.و بما أن النص يتضمن تصورات لغوية لا تبوح عن نفسها بشكل واضح إلا إذا استدعى جانبها اللغوي جانبها السياقي،و استتبع جانبها الرمزي جانبها الدلالي، فإن التفكير في أطروحة تكون الحل الفاصل في إشكالية المعنى بات أمرا ملحا يستوجب تفكيرا و إنصافا لعناصر العملة الإبداعية و التي تعتبر تجربة جمالية و فكرية إنسانية،و التجارب الإنسانية تجارب كلية يحتاج الكشف عنها إلى توالج شامل للعلاقات الإبستيمولوجية و الإنسانية أخذا بعين الإعتبار موقع التجربة ذاتها ضمن شبكة العلاقات هذه.

يملك النص الأدبي كيانه الخاص لكنه لا يملك كيانه المنفصل انفصالا مطلقا عن تعالقات الرمز بالدلالة و عن تشاكلات اللساني بالإنساني. إن الأعمال الأدبية هي تجارب إبداعية، لا تنتهي بانتهاء لحظة كتابتها، و إنما تسعى إلى شق طريقها بعد ذلك، في نزعة مستمرة نحو الانتشار و التحقق المتواصل متجاوزة المعاني السابقة بمعاني أخرى

لاحقة، في قفزات ثابتة فوق نتوءات الزمن و التاريخ. لتجد في كل عصر نمطا جديدا من المتلقين، يختلف عن غيره من المتلقين في الأزمنة المغايرة، وفي البيئات المختلفة، في الكثير من تصوراته و مفاهيمه، التي تشكل موسوعته المعرفية و استعداداته الفكرية، في مواجهة الرمز و اكتشاف المعنى.و هنا تصبح الإستعانة بالتأويل ضرورة ملحة، يكتسب من خلالها الطابع الرمزي و التمثيلي للنصوص قدرته على تجاوز حدود اللغة إلى ما وراء النص" فالنص الأدبي وثيقة قوامها الجدل بين المعطيين الجمالي والدلالي"1، ومن ثمة جاءت أولوية التأويل.

تقرأ النصوص عشرات المرات وفي كل مرة تبوح من جديد بدلالات و معاني تقر بالتعدد، وترفض الثبات الذي يؤدي إلى أحادية المعنى. وإلى تثبيت القصد،والذي يعلي إحدى الذاتين و يقصي الثانية،فنحن إذ" نقرأ النص نقرأه من خلال عقل صاغت قدرته على الفهم و القراءة ترسبات الخبرات القرائية المختلفة، و مواصفات النصوص التي سبق استحسانها أو استهجانها على السواء"2 و ما القراءة المتكررة أو المتجددة إلا إحياء وانبعاث للنص من جديد وفق أطر و ليات فكرية و معنوية جديدة.

إن القراء تحقيق لمكاسب معنوية تزخر بالدعوة إلى الإنشاء بالرمزي و إلى الإنخراط في ممارسات تدليلية، تربط الرمز باحتمالاته الدلالي الموجودة في محيط النص،و في عالمه الخارجي حيث تنشأ عملية الإصطفاء و الإنتقاء أين يتم تغليب دلالة على أخرى. معتمدين على عنصري الكشف و الحجب، فالأعمال الإبداعية سليلة الالتباس،ولا مكان ضمنها لأحادية المسار في القراءة و لا لتفردية الرؤيا و الإتجاه. فالنصوص هي من صنع الإختلاف في الأزمنة و القراء.و تستوجب

معانيها التشكيك فلا وجود لمعنى نهائي أو مثالي. كما أن النصوص كما هو معروف تحمل في جوفها المنطوق و المهموس ، المصرح عنه و المعتم عليه"فالنص يحتوي على عدد من الفجوات"3 هي فجوات لا تمد النص بسوء أو نقص وإنما تزيده جمالا و رونقا.

أحادية القراءة أم ثنائية النص و القارئ:

إن النص هو تجربة القارئ مثلما كان في البداية تجربة المؤلف،"فسلطة المنتج على نصه و امتلاكه له يزول بمجرد ما يلقي به إلى القارئ "4 والانطلاق من التجربة التأويلية كتجربة لبناء الذات و المعنى غدا مسلما به في خيارات القراءة و التلقي بحيث أصبحت العملية التأويلية مجمع التقابلات و موطن الافتراضات و التخمينات المعرفية والفكرية التي تنقل النص من وضع الثبات و المعنى المتحجر إلى وضع الترحال و المعنى المتجدد. فالفن تجربة إنسانية شاملة يلتقي عند أبوابها المبدع و المتلقي ليتعرف أحدهما على الآخر،و ليشاركا بعضهما البعض تجاربهما.الأول من خلال قراءته الموجودة و المصوغة في لغة أولى،و الثاني من خلال تذوقه لإبداع الأول ،و من خلال إعادة صياغة النص والوجود ضمن لغة ثانية. فالقراءة التأويلية هي الحل في وجه التصدع الزمني والانقلاب التاريخي،حتى يحق للقراء على اختلاف عصورهم ومستوياتهم من تحقيق ذواتهم، ومن بلوغ الفهم الصحيح لمآثر الآخر الإبداعية.

لا يمكننا خلق المعنى إن نحن كففنا عن طرح الأسئلة و امتنعنا عن ربط المعنوي بالمادي، و الموضوعي بالذاتي. لأن قولنا بأن التأويل تحرير للذات،و للدلالة معا، لا يعني البتة انعتاقه من أدنى حدود التوجيه. وانطلاقه في فضاء من الحرية التي تفضي بقدرات الإشتغال التأويلي لديه إلى فوضى من السلوكات العشوائية لأن التأويل شراكة تفاعلية بين النص و القارئ، يأخذ ضمنها الرمز أبعاده الوجودية المختلفة التي تحيل

دلالته على عدة احتمالات.و تبحث عن معناه بوصفه افتراضا يقع بين المركز والهامش،و بين الحاضر و الغائب،و بين الواضح و المعتم.

إن هوية النصوص معانيها،و الهوية نموذج معنوي في طور الإمكان و التحقق الدائمين، و كذلك معاني النصوص هي نماذج تشبه الهويات في مصائرها و حقائقها فهي ليست محصورة في زاوية معينة من النص، كما أنها ليست موجودة في هيئتها المكتملة الثابتة.

بما أن النصوص الأدبية و الإبداعية هي عبارة عن تشكيلة فنية جمالية فإن استنطاقها يحتاج إلى الجمع بين المكون التخييلي و المكون الواقعي أو بين الفعل الإيحائي،و الفعل التدليلي. في عملية تفسير للحاضر الواضح_من جانب_ و كشف للغائب المعتم من جانب آخر.ولعل هاتين النقطتين الأخيرتين المتمثلتين في الوضوح و الغموض هما أكبر دليل على تباين المكتسبات الفكرية،و الخلفيات الثقافية للمؤلف و القارئ معا.و هما أصدق حجة لضرورة حضور التأويل كمنفذ ابستيمولوجي لتجاوز العوائق التاريخية،و لتخطي الحواجز المفهومية والفكرية لدى الطرفين. فيصبح المعنى بذلك خلاصة لتفاعل النص بالمتلقي،و اندماج الذاتي بالموضوعي، حيث أصبح الفصل في هذا الأمر نتيجة تقررها حاجة النص إلى براعة المتلقي في تشييد معناه. وحاجة المتلقي إلى رمزية النص في تشييد ذاته."فالرمز عاطفة بين اللامحدود والمحدود و من ثم فإنه يحمل على كليهما..."5و هو الأمر الذي يفتح المنافذ واسعة أمام القارئ و نصه في التعاطي فيما بينهما.

أن ميزة النصوص الإبداعية، و خاصيتها المتألقة تتمثل في قدرتها على تكثيف المعنى و اختزال الدلالة ضمن عالم فني تصطف فيه الحقائق والأفكار بقدر ما تصطف فيه المعاني و الأوهام. فتتطلب بذلك عمليات

تأويلية تتجدد معها بذور الفهم لدى المتلقين، و يعاد ضمنها صياغة النص بأوجه دلالية و أشكال رمزية مختلفة.يشيد فيها المتلقي صرح المعنى أنطلاق من المسكوت عنه قبل المعبر عنه فالصمت إبداع،والسكوت قول،و الحذف كلامو"صمت الجهال ليس كصمت العارفين"6لذلك ليس على المتلقي تجاوز هذا الصمت دون أن يجري حوارا معه، مبرهنا من خلال هذا الحوار عجز السواد على إرغام البياض على الصمت، و بذلك تتوحد الرؤيا منطلقة من النص إلى المعنى، ومن الرمز إلى الدلالة، ومن المؤلف إلى المتلقي، ومن الوجود إلى الذات،و من الشك إلى اليقين، و من النص إلى الفعل. ليكون التأويل أشمل القراءات و أوسع الاحتمالات وأنسب المقاربات النقدية. إذ بات النص الأدبي في ظل تزايد الانفتاح الفكري و التعدد الرؤيوي أكثر التجسيدات الفنية و الإبداعية إثارة للجدل،و أوفرها حظا في استقطاب جانب مهم من العناية النقدية. فتوالج مستوياته و تقاطع دلالاته،و تداخل نسيجه الجمالي أمور تجعل من القارئ يعزف عن تتبع خطية النص و انبنائه و حتى عن فكرة وحداوية المعنى. محاولا بذلك تتبع استراتيجية تأويلية مختلفة عن غيرها من الدراسات النقدية الأخرى لإعادة رسم ملامح النص و إضاءة عتماته" فالنص كون مفتوح،بإمكان المؤول أن يكتشف داخله سلسلة من الروابط اللانهائية"7تقودنا إلى انفتاح دلالي يناشد المعنى المتعدد،ويستقطب في النص روحه المتجددة بمعناها المتأصل الضارب بفروعه في عنان الشك والافتراض الدائمين.

إن السعي إلى استقراء الدلالة و الإمساك بالمعنى الجاهز و الثابت لا يقود إلا إلى إحداث قطيعة بين النص و بين استمرارية وجوده. فمعنى النص روحه التي تأبى أن تنعت بالثبات"و القراءة فن يخضع لموهبة الفرد

و لتجربته و لثقافته" 8لذا كان لزاما على القارئ أن يأتي بالتأويل،تلبية للنداء الأصيل الموجود في عمق النص،و الذي يمقت فكرة العيش على المعنى الواحد و الدائم،ويأبى إلا أن يحترف اختزال الزمن وتجاوز التاريخ فلكل شيء معنى حتى وإن جهلناه،و لكل فرد رأي حتى و إن لم نعترف به "فالمناهج التأويلية صممت لكي تمكن النص أن يؤتي كنزه" ويلفظ مكنوناته التي تستنفر في القارئ جل طاقاته، فالقارئ أو المتلقي في لحظة مباشرته لنصه إنما يكون مجهزا بمجموعة من الأفكار والقناعات،ومجموعة أخرى تمثل المنطق و الآليات،و أخرى تحمل الرغبة والإستعددات. كل هذه العناصر و غيرها تمثل بعضا من الطاقات الخبيئة لدى شخص المتلقي، و هي التي يمكن بفضلها أن نفجر في النص طاقاته،ولكن و في نفس الوقت لا يمكن الكشف عنها في فكر و ثقافة المتلقي ما لم يكن النص صلبا،متمنعا، متواريا عن الأنظار الساذجة ،ومستفزا لاستعدادات القارئ.

فالتأويل وحده قادر على استنطاق النص و على الإجابة على السؤال الواقع في تخومه.و ذلك بالغوص تحت سطح اللغة و فك شفرتها.لأن أكثر المناطق استعصاء،أكثرها ابتكارا.و الغموض يؤز القارئ و يحفزه على تعقب المجهول و إدراك المستعصي ففهم النص فهم لذواتنا وغموض النص لم يكن أبدا سمة سلبية فيه،و لا اصطدام القارئ بجدار الصمت بالمعضلة فمهما علت أسوار النص و مهما كانت صفة الغموض الذي يعتريه، فإن القارئ كفيل بامتلاك مفاتيحه"فالقارئ هو الذي يكمل الفعل الأدبي و يحوله إلى دليل للقراءة بما فيه من مزايا غير قطعية و ثروة تأويلية خبيئة"9 و فعل القراءة هو ما يعيد النص إلى الحياة،و يبعث في الكلمات روح الاستمرارية لا الثبات.

إن ولوجنا إلى النص لابد أن يكون مجازفة واعية، تكتسب قيمتها من قيمة الهدف الذي ترنو إليه،و المتمثل في بسط مساحة دالة تكون أكبر و أعمق من تلك الموجودة على السطح.فالنص لا يطالبنا بوصف تجريدي من المعالم المنتظمة في صلبه بقدر ما يلح علينا بارتياد المجهول فيه،بغية استشراف آفاق جديدة"فأفق التوقع و أفق التجربة يواجهان باستمرار أحدهما الآخر و ينصهران"10 ليجد المعنى تحققه في ظل هذا الإنصهار.

صدق الإفتراض وخيبة التوقع:

تمتزج الدلالة بنسيج النص و تنشأ في تركيبته،و تسبح في محيطه. فهي ليست بالأمر الثابت أو بالعنصر القطعي، لأن ليونتها تقودنا إلى تلمس الجانب الخشن منها و بساطتها تستدعي تعقيدها،و وضوحها يترتب عنه غموض يأبى الانجلاء إلى على يدي قارئ يكون مستعدا في أي لحظة لمفاجآت جديدة_ليست دائما سارة_و لكنها في كل الأحوال موحية،تقصي بحسم فكرة الانحسار والتقهقر.و تصر على اكتساب هويتها المتجددة_لا بين كلمات النص_ و لكن بين تخمينات القارئ وافتراضاته،و بين صدق تلك الافتراضات و خيبتها. يتولد المعنى بين ما يحاول النص أن يتستر عنه و بين ما يحاول المتلقي الكشف عنه، بين ما يحمله النص من أفق تجريبي بكل إحداثياته الجمالية و الفنية،و بين ما يملء ذهن و فكر القارئ من توقعات ابستيمولوجية استطيقية أيضا بكل ما فيها من ثغرات و نتوءات"فالإنسان مهما قيل في شأنه يبقى عبارة عن وحدة عضوية له تكوينه الخاص و كينونته الخاصة"11 و من هنا جاءت إمكانية توافق الآفاق و انصهارها، و كذا تصادمها و خيباتها، ذلك أن النص والمتلقي يشكلان كيانين مختلفين عن بعضهما البعض لازالا في

طور التعارف و التلاقي.ليس من الصواب دائما أن يتفقا ،و ليس من الخطأ أبدا أن يختلفا.

إن القراءة في النصوص الأدبية تتميز عن باقي القراءات في شتى صنوف الرموز المنثورة في الوجود و الحياة. وهذا التميز يكمن في أن القراء في النصوص الأدبية والفنية ينظمون إلى عالمها الداخلي فيغدو القارئ عنصرا من هذا العالم يؤثر فيه و يتأثر به دون أن ينسلخ عن عالمه الحقيقي الموجود في الخارج. هذا التصادم بين العالمين الحقيقي والخيالي هو بديل آخر و وجه من أوجه التلاقي و التنافر الدائمين بين القارئ ونصه، إذ أنه من الغباء أن نتوقع الوفاق الدائم بين الطرفين فذاك ضرب من المستحيل.

تحاول النصوص اختراق الواقع و تجاوز العوالم الحقيقية بخلقها لعوالم تخييلية ممكنة،فهي في صراع دائم بين ما هو موجود في العالم الحقيقي الواقعي للأفراد و بين ما تحاول هي إيجاده في عالمها التخييلي الذي تفرزه للقراء. وهي بذلك تشكل _ومن خلالها هذه العوالم المفترضة_ جزء لا يتجزء من العالم الخارجي و لاكنه يبقى أصغر بكثير من الحقيقة.لذلك" فإذا قررنا أن العمل له معنى فينبغي أن ندرجه داخل نسق أعلى"12والتأويل ليس مجرد لعبة نمارسها مع النص و لا مجرد تحد فارغ أو صراع عشوائي بين الآفاق،و إنما هو استراتيجية إبداعية قوامها النص و زادها رصيد فكري و ابستيمولوجي يمكن القارئ من إلغاء مقولة النص المتعالي.

يجد التأويل في النصوص المنغلقة أرضا خصبة ينشئ حولها مجموعة من المعاني كان قد أحرزها بفعله التفكيكي.و من شأن هذه النصوص أن تستعصي على الفهم كونها تحيل على أكثر مما تقوله، و هنا

يكمن خداع النص المرصع بالفراغات ،و يكمن خداع اللغة المحفورة بنواة كامنة خلف تشكيلها، حيث تقيم بدورها توترا يتزيا به النص،و من ثم يصير ملكا لقارئه إذا ما تم تأويله بعد أن حاول إعاقته و التملص بعيدا عن الفهم الساذج و البسيط.فالنصوص الغامضة نصوص مفتوحة على المعاني المتجددة، منغلقة أمام المعاني الجاهزة و البارزة. فيأخذ المتلقي حريته مع النص متخذا من"دروب الحرية كفعل للاختيار والولوج في المجهول"13،و النص بهذا الشكل لا ينتهي عند تأويل واحد وإنما يتعدد باختلاف القراءات المتتالية حوله، و هو لا يعمل عشوائيا إنما يستجلي قارئه النموذجي الخاص الذي ارتضاه كفاعل حقيقي يمكنه من امتلاك المعنى الموجود فيه، ذلك أن التأويل يتخذ مرقبا على كل الشفرات تبعا لمسالك النص و الدلالات المثارة فيه. ومن ثم فإن مثل هذه النصوص تقيم سيرورة لانهائية يستمر معها الفعل القرائي كتوليد لانهائي لها تدخل فيه الأنا ضمن سيرورة لانهائي و من المعاني وتوليدها.حتى يحدث لها الوقع الجمالي من خلال إدراك وجهات النظر حوله.و من هنا قد تختلف أشكال القراءة و لكنها تخلص جميعها إلى استثمار رؤية صاحبها وإلى قدرته على بلورة الأشياء في كلمات و رموز ، ومن ثم بلورة الكلمات والرموز إلى دلالات و معاني.

قائمة المصادر و المراجع:

1عبد الإله الصائغ: الخطاب الإبداعي الجاهلي و الصورة الفنية القديمة و تحليل النص المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط1، 1997 ص:25

2_ عبد الرحمان محمود

القعود: الإبهام في شعر الحداثة العوامل و المظاهر و آليات التأويل،سلسلة عالم المعرفة،الكويت رقم 279 ، 2002 ، ص: 337 .

3_ ناظم عودة خضر:الأصول المعرفية لنظرية التلقي،دار الشروق المغرب، ط 1 ، 1971 .

4_ محمد الماكري : الشكل و الخطاب،مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ط 1، 1991 .

5_عاطف جودة نصر:الرمز الشعري عند الصوفية،دار الأندلس للطباعة و النشر،دار الكندي بيروت،ط 1: 1978،ص: 115.

6_نديم نجدي:إضاءات نيشوية،ما قبل الكلام و ما بعده،دار الفرابي،بيروت،ط 1: 2002،ص: 143.

7_أمبرتو إيكو:التأويل بين السيميائيات و التفكيكية،تر:سعيد بن كراد ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،بيروت2000، ص: 42.

8_محمد خير البقاعي:بحوث في القراءة و التلقي،مركز الإنماء الحضاري حلب،ط 1: 1998،ص: 17.

9_بول ريكور:الوجود و الزمان و السرد،تر:سعيد الغانمي،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء بيروت،ط1، 1999،ص 98.

10_المرجع نفسه،ص:47.

11_مهدي فضل الله:آراء نقدية في مشكلات الدين و الفلسفو و المنطق،دار الأندلس،ط1، 1981،ص:190.

12_لوسيان غولدمان:البنيوية التكوينية و النقد الأدبي،تر:مجموعة من الباحثين،مؤسسة البحاث العربية،دط،دت،ص10.